

## الإحسان في زمن الجحود النكران نزار عبدالخالق



الإحسان في زمن النكران ما بين "مجبر أم عامر" و "من يفعل الخير لا يُعدم جوازيه"

ما من إنسان إلا ويبتلى بفنائه من الخلق حوله يتقربون إليه وقت المصالح والحاجات؛ فيفتح لهم قلبه، ويُعيرهم سمعه، ويقتطع لهم من وقته، ويبسعي بجاهه ومعارفه لفضاء حوائجهم وتيسير أمورهم، وربما أنفق عليهم من ماله وجهده، ثم لا يسمع منهم كلمة شكر، ولا يرى اعترافاً بفضل، ولا يظفر دعوة صادقة في ظهر الغيب، بل قد يرتدّ إليه بعض إحسانه جرحاً بارداً أو كلمة قاسية جحوداً ونكراناً.

هؤلاء — على قسوة أثرهم — ليسوا عثرةً في الطريق فحسب، بل هم امتحانٌ دقيق للإخلاص، وميزانٌ خفيّ يكشف حقيقة النيات: هل صنع المعروف لله، أم نصعه للناس؟

إن الجحود في الحقيقة هو سلوك غير سويّ، منافٍ للقيم الإسلامية النبيلة التي زخرت بها الشريعة الإسلامية، ومجانبا لعادات العربية الأصيلة، فهو ليس سلوكاً طارئاً يولد من لحظة عابرة، بل هو في الغالب نتيجة تراكمات نفسية وتربوية تشكّلت عبر سنوات؛ إنه عرضٌ لخللٍ أعمق في بناء النفس، واضطراب في فهم العلاقة بين الأخذ والعطاء. فالإنسان حين لا يُرتى على الامتنان، ولا يُهدب وعيه بحقيقة الفضل، قد ينقلب على من أحسن إليه دون أن يشعر أنه يرتكب خطأ أخلاقياً جسيماً.

وفي بعض الحالات، يقف وراء الجحود تضخمٌ في الأنا، ونزعةٌ نرجسية ترى الذات محور الوجود. هذا الصنف يتعامل مع المعروف بوصفه حقاً مكتسباً، لا فضلاً يُقابل بالشكر. يشعر في أعماقه أن العالم مدينٌ له، وأن كل ما يُقدّم إليه إنما هو تعويضٌ مستحق، لا عطاءً كريم. لذلك تبدو كلمة شكرًا ثقيلة على لسانه، لأنها تعني اعترافاً ضمناً بأن الفضل جاءه من خارج ذاته، وهو ما يُهدد صورته المتعالية عن نفسه. ويرتبط بهذا الشعور خوفٌ دفينٌ من "الدّين المعنوي"، وفي أحيان أخرى يكون الدافع غير مستتره أو شعوراً بالنقص. ولا يمكن إغفال أثر التنشئة في تشكيل هذا السلوك؛ فالبيوت التي لا تُعلم أبناءها قيمة الشكر، ولا تُمارس الامتنان عملياً، تُخرّج أفراداً يرون العطاء أمراً طبيعياً لا يستوجب التقدير.

ومن المنظور الإيماني، يكشف الجحود خللاً في إدراك حقيقة النعمة؛ فالمؤمن يرى الناس أسباباً يسوقهم الله إليه، ويعلم أن شكرهم من تمام شكر الله. أما من انقطعت صلته بهذا المعنى، فقد يحصر النعمة في حدود ذاته، فيغفل عن فضل الوسائط التي كانت سبباً في وصول الخير إليه. وهنا يتحوّل نكران الجميل من مجرد خطأ اجتماعي إلى اضطرابٍ في الرؤية القلبية.

وتتكرّر صور الجحود في حياتنا اليومية على نحوٍ يكاد يكون مألوفاً لكثرة ما نراه، حتى كأنها مشاهد محفوظة في مسرح العلاقات الإنسانية:

- قريبٌ لا يظهر إلا عند الحاجة؛ يطرق بابك مثقلاً بالشكوى، مستنداً إلى ما بينكما من رحمٍ وذكريات. فإذا قضيت حاجته، وانكشفت غمته، عاد إلى صمته الطويل، كأنك محطة عابرة في سفره لا وجهاً حاضراً في حياته. تمرّ به فلا يذكرك إلا حين تضيق به السبل، وكأن المودة عنده موسمية، تُستدعى وقت العسر وتُنسى عند السعة.

- صديقٌ رفعتَه في أعين الناس، دافعت عنه حين غاب، وزكّيت خُلقه حين سُكّ فيه، وفتحت له أبواباً ما كان ليبلغها وحده. فإذا تمكّن، نسي اليد التي ساندته، بل ربما شارك — صراحةً أو صمناً — في طمس أثرك، كأن اعترافه بفضلك يُربك صورته الجديدة. يفضّل أن يُكتب نجاحه بعدادٍ فرديّ، ولو محاً من الصفحة أسماء الذين أعانوه.

- طالبٌ أو متدرّجٌ علمته ووجهته، صبرت على تعثره، واحتملت أسئلته، وأعنته على تجاوز ضعفه. فإذا نجح واشتدّ عوده، تبرّم من ذكرك أو تحرّج من الإشارة إليك، كأن الاعتراف لك يُنقص من مجده، أو يُضعف وهج إنجازه. فيعيد سرد القصة على نحوٍ يجعله بطلاً الوحيد.

هذه الصور — على اختلاف وجوهها — يجمعها خيطٌ واحد: ضيق النفس عن الاعتراف بالفضل، وخوفها من أن تُشارك أحدًا في صناعة النجاح. لكنها، في المقابل، تكشف قيمةً أخرى لا تقل أهمية: أن المعروف لا يُقاس بردود الأفعال، بل بصفاء النية، وأن اليد التي تعطي لا تفقد شرفها لأن بعض القلوب ضاقت عن الشكر.

فليست العبرة بأن يُذكر اسمك في كل قصة، بل أن تكون قد أدّيت ما عليك بصدق. ومن عرف أن العطاء خُلُقٌ قبل أن يكون علاقة، لم يُفجعه أن ينساه بعض الناس؛ لأن ما يُنسى في الأرض، لا يُنسى في السماء.

إن هؤلاء الأشخاص لا يسبرون وفقاً القاعدة النبوية الواضحة: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله» التي تجعل الشكر خُلُقاً تعديداً قبل أن يكون ذوقاً اجتماعياً، فإن كثيراً من الناس يتعاملون مع عطايا الآخرين كأنها حقوقٌ مُسلمة لا نِعْمٌ تستوجب الامتنان. وهنا يتجلى وجهٌ من وجوه «فساد الميزان القيمي»، حين يُرى المعروف استحقاقاً، ويُرى الشكر تفضلاً.

فالوفاء، وحفظ المعروف، وردُّ الجميل، ومقابلة الإحسان بالإحسان، والمكافأة للمعروف بمثله أو أحسن منه والدعاء لصاحبه - من أخلاق الإسلام، ومن صفات المتقين؛ قال الله تعالى: ( وَأَحْسِنُ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ) [القصص: 77]. وقال سبحانه: ( هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ) [الرحمن: 60].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم: ((لا يشكُرُ الله من لا يشكُرُ الناس))؛ رواه أحمد والترمذي. وعن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه، فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه))؛ رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم زاخرة بردّ الإحسان ومكافأة المعروف، فعنه أنه قال:

«ما لأحدٍ عندنا يدٌ إلا وقد كافأناه، ما خلا أبا بكرٍ، فإن له عندنا يدًا يُكافئُه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مالٌ أحدٍ ما نفعني مال أبي بكرٍ، ولو كنتُ متخذًا خليلًا لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلًا، ألا وإن صاحبكم خليل الله» (رواه الترمذي).

أما إحسان مجبر أم عامر، فهي حكاية تتكرر في كل عصر ولكن بأقنعة جديدة. فلم تعد الضبع تأتيك في صورة أنثى هاربة من الصيد تستصرخ جوارك، بل قد تأتيك في هيئة صديق يلوذ بقلبك حين تضيق به الدوائر، أو قريب يستظل بسفكك حين تعصف به الرياح، أو زميل يتقوى بسمعتك حتى يشتد عوده ويستقيم ظهره.

تأتيك مستضعفةً، مستأمنةً، تحسن إليها بدافع المروءة، وتفتح لها من دفء قلبك ما لا تفتحه لغيرها، ثم إذا استقرت قدمها واستغنت عن عونك انقلب المشهد على نحوٍ موجه؛ تمرّفك بظفرها اللامرئي: كلمة تُقال في غيابك، أو وشاية تُزرع في طريقك، أو إنكارٌ باردٌ لماضٍ مشتركٍ كان بالأمس عنواناً للوفاء.

وهكذا لا يكون الغدر صاخبًا دائمًا؛ فيعوضه يأتي في صورة صمتٍ متعمّد، أو تجاهل محسوب، أو إعادة كتابةٍ للتاريخ تُسقط اسمك من السطور، وكأن وجودك لم يكن إلا مرحلة عابرة في رحلٍ يحرص صاحبها أن ينسب فضلها إليه وحده.

وما أفسى أن يتحوّل الإحسان من جسرٍ للمودّة إلى شاهدٍ على الجحود. لكن العاقل يدرك أن الحكاية – وإن تكررت – لا ينبغي أن تُطفئ في قلبه جذوة الخير، بل أن تعلمه أن يجمع بين المروءة والفتنة، وأن يمنح بثقة، لكن دون أن يُسلم قلبه بلا حراسة.

من ملامح النفس الجحودة: أنها تستمتع بثمار الغرس، ثم تسخر من الزارع، وتستظل بظل الشجرة، ثم ترميها بالحجارة، تمامًا كما فعلت «أم عامر» مع من أجارها وسقاها وذاد عنها.

لا يرى الجاحد في المعروف منحة تُقابل بالشكر، بل يراه حقًا مكتسبًا، فإذا قصّرت يومًا في عطاتك عدّ تقصيرك خيانة، ونسي سنوات البذل الأولى، وكأن رصيدك كله قد تلاشى بامتحان واحد.

أصناف الناس في زمن الجحود يمكن للمرء أن يلحظ، في مرآة التجربة، ثلاثة أصناف بارزة من الناس في هذا المناخ الأخلاقي المرتبك.

الصنف: الوفيّ الحافظ للودّ من يكفيه أن تمسّسه نفحة من معروفك؛ فيحمله عمرًا في قلبه، ويردّه دعاءً، أو نصرّةً، أو كلمة حق في غيابك، فيغدو شاهدًا حيًّا على أن «من يفعل الخير لا يُعدم جوازيه».

الغافل ضعيف الذاكرة: لا يتعمّد نكران الجميل، لكن ضغط يومه يثقب ذاكرته؛ فإذا انقضت الأزمة نسي اليد التي أسعفته، فهذا يُذكر ولا يُؤنب، لأنه ابن العجلة أكثر منه صاحب خيانة متعمّدة.

الجاحد الممنهج: يعرف جميلك تفصيلًا ثم يدفنه تحت تبريرات الأنا؛ يقتات من عطاتك، فإذا اشتد ساعده افترسك، مكرّرًا مأساة «مجبر أم عامر»، حيث يكون الغدر قرارًا باردًا لا نزوة عابرة.

إن مهارة العيش مع هؤلاء ليست في إغلاق القلب، بل في تعلّم «فن التوجيه»؛ أن تعرف لمن تبذل، ومتى تتوقف، وكيف تحمي روحك من التآكل.

فالشعر والعقل يتفقان على أن المعروف لا يضيع عند الله، وإن ضاع في دفاتر الناس، وأن «العرف» - أي الإحسان - محفوظ في سجل الغيب، وإن أنكره المستفيدون منه في سجل الواقع.

فليكن عطاؤك لوجه القيمة لا لوجه الأشخاص، وأن تحمل قلبًا كريبًا وعقلًا يقظًا فالطيبة بلا وعي تتحوّل إلى بيئة مفضّلة للطفيليات البشرية، كما تحوّل كرم الأعرابي مع «أم عامر» إلى مأساة لأن كرفه لم تصبه فتنة بطشها المفترس.

وتعلّم فن المسافة الإنسانية؛ فالمسافة ليست قسوة، بل هي سياج يحمي أشجار المروءة من أظافر «أم عامر» الجديدة في كل عصر.

ومع ذلك، يبقى الإحسان سبيل الكرام، والعمق شعاع النبلاء، ومن تعلّق رضاه برّبّه لم يزد الجحود إلا ثباتًا على الجميل؛ لأن ما عند الله خيرٌ وأبقى، ولأن كل عملٍ خالص له لا يُضَيّع أجره وإن ضاع شكره بين الناس.

وقد صرح الشاعر أبو العتاهية مثنياً على صديقٍ وفّي، يرّد الإحسان بالإحسان، ويجعل من الصداقة مقامًا للنجدة والكرم:

جَزَى اللهُ عَنِّي صَالِحاً يَوْفَائِهِ      وَأَضَعَفَ أضعافاً لَهُ فِي جَزَائِهِ  
بَلَوْتُ رِجَالاً بَعْدَهُ فِي إِخَائِهِم      فَمَا ازْدَدْتُ إِلَّا رَغْبَةً فِي إِخَائِهِ  
صَدِيقٌ إِذَا مَا جِئْتُ أَبْغِيهِ حَاجَةً      رَجَعْتُ بِمَا أَبْغِي وَوَجْهِي بِمَائِهِ

نزار عبدالخالق